حركة التّعريب في العصر الأموي

– طريق انعتاق ونهاية تبعيّة –

الملخّـــص:

عرفت الدّولة الأمويّة نهضة كبيرة على المستوى الإداري والاقتصادي، ولعلّ أهم ما ميّزها هو حركة التعريب التي شهدتها على مستوى الدّواوين والعملة، والتي عبّرت عن نزعة استقلالية تحرّرية انتقلت بموجبها الإدارة والاقتصاد من التّبعية للفرس والرّوم إلى مرحلة الإنعتاق وبناء الهوية الإسلامية، لذلك فدور الأمويّين وكُتّابهم لا ينكر في الرّقي بالإدارة، ولا يمكن بأي حال من الأحوال دراسة تاريخ الإدارة والاقتصاد الإسلامي بمعزل عن جهود الأمويّين وإسهاماتهم في ذلك.

فما هي أسباب حركة التعريب في العهد الأموي؟ وما هي مجالاتها؟ وما هي أبرز نتائجها؟

Abstract

The Umayyad state has witnessed a great renaissance at the administrative and economic levels, Perhaps the most important feature of this renaissance is the Arabization movement at the level of the divans as well as the currency, It also expressed a liberal independence tendency through which the administration and the economy moved from the dependence to the Persians and Romans into the stage of emancipation and the building of Islamic identity, Therefore, the role of the Umayyads and their writers is not denied in the promotion of the administration, Moreover, the history of the Islamic administration and economy cannot be studied in isolation from the efforts of the Umayyads and their contributions to it. So, what are the reasons for the Arabization movement in the Umayyad period? What are its areas? And what are the main results?

قبل الحديث عن حركة التّعريب في العصر الأموي، والتّي شملت النّقود والدّواوين والطِّراز، نذكر أنّ التّعريب ليس فقط وسيلةً لتسهيل المعاملات الإداريّة، وإنّما هو أبعدُ من ذلك بكثير، فالعملة مثلا تعني استقلال الشّخصية واحترام الذّاتية، وعدم التبّعيّة النَّقديّة لدولة أجنبية، «فمنذ قيام الدّولة الإسلاميّة بحث الرّسول تلك المسألة الخطيرة، وحتّى تكتمل سياسة حكومته الاقتصادية فقد اختار عملة جديدة خاصة بالمسلمين، فاختار الدّينار الإسلامي ليكون وحدة العملة التي يجري استعمالها بين المسلمين»[1].

ومع ذكر حركة التّعريب يذكر عبد الملك بن مروان، فهو «مُؤسس النّهضة العربيّة الأولى بسبب حركة التّعريب الشّهيرة في مرافق الدّولة، صحيح أنّ معاوية له فضلٌ في إدخال بعض الأنظمة الإداريّة في الدّولة، إلاّ أنّ عبد الملك بن مروان هو الذي صَقَلها، وأضاف عليها، وبَلْوَرها ثمّ عرّبها، وهي أهمّ خطوة خطاها خليفة حتّى تلك الفترة»[2].

فقد عرّبت في عهده دواوين العراق والشّام، ثمّ عرّبت دواوين مصر في خلافة ابنه الوليد، ثمّ دواوين خراسان في خلافة هشام، «وأمست اللغة الرّسمية في السيّاسة والإدارة هي العربيّة، بعد أن نقلت إليها أدقّ المصطلحات الفارسيّة واليونانيّة، في الحساب والفنون المعروفة في تلك العصور»[3].

والمعلوم أنّ الكتّابَ هم أشرفوا على عملية التَّعريب وقاموا بها، فكان لهم بذلك عميقُ الأثر في السيّاسة والإدارة، وقبل هذا لابد من ذكر اللّغات التي كانت معتمدة في الإدارة في كل من العراق والشّام ومصر.

-اللّغات المستخدمة في الإدارة قبل حركة التّعريب:

كانت بعض الدّواوين في البلد الواحد تكتب بالعربيّة وبعضها بالفارسيّة والروميّة،ولم يزلْ بالكوفة والبصرة ديوانان أحدهما بالعربية لإحصاء النّاس وأُعطياتهم، والآخر للأموال بالفارسيّة وبالشّام ديوان بالعربيّة وآخر بالروميّة وبقي الأمر على ذلك حتى عهد عبد الملك، أمّا في مصر فكانت الدّواوين بالقِبطيّة واليونانيّة والعربية إلى جانبها[4]، فاللّغة العربيّة كانت موجودة في كل الدواوين ولا غنى عنها، فالكاتب يكتب عن الخليفة والوالي بالعربيّة، بالإضافة إلى أنّها لغة كاملة الألفاظ، وبها يَصلح الإيجاز، وقد اختصّت بعلاماتٍ لا تعرفها اللّغات الأخرى[5].

---

[1]-كامل سلامة الدقس: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين، دار عمان، عمان، 1994، ص456.

[2]-حسان علي حلاق: تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1986، ص105.

[3]-صبحي الصالح: النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، دار العلم للملايين، بيروت، 1982، ص315، 316.

[4]-حسان حلاق: المرجع السابق، ص94. هاني صبحي العمد: أدب الكتابة والتأليف عند العرب، نظرة عامة، الجامعة الأردنية، عمان، 1986، ص94.

[5]-القلقشندي أحمد بن علي (ت861هـ): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ج1، ص183، 184.

وليس هناك شكّ أنّ مظاهر الكتابة العربيّة قد تأثّرت بما كان عند الأُمم المجاورة من أساليب واتجاهات، ومن هذه الأمم الفرس والرّوم، وتأثرت بما وصلوا إليه من تقدّم في مجال الدّواوين على الخصوص، إلاّ أنّه مع هذا التأثّر ظلّت الكتابة العربيّة نفسها عربيّة النشأة، استمدت تقاليدها من العصر الجاهلي، وما استحدثه الإسلام، والدّليل هو أنّ الموالي عندما بدؤوا مشاركة العرب في الحياة الأدبية، كانت الكتابة العربيّة قد قطعت أشواطًا بعيدة في التّطور[1].

هذا وعرف الديوان بمصر كما ذكرنا استخدام لغتين: اليونانيّة والعربيّة، الأولى رسميّة والثانية على أنّها لغة الحاكم العربي، أمّا القبطيّة التي كانت تكتب أسفل الصّحف فكانت على درجة ثالثة من الأهمية[2]، فرُغم أنّنا نلاحظ في أوراق البُردي المصريّة لغة قِبطيّة إلى جانب اليونانيّة والعربيّة، إلاّ أنّ هذا لا يعني أنّها كانت لغة رسميّة، بل العكس بدليل أنّ الكتابات القِبطيّة كانت تُدوّن في آخر الوثيقة أو في ظهرها، ممّا يدلّ على أنها كانت لغة ثالثة من حيث الأهميّة، ثمّ إنّ الكتابات القبطيّة كتبت بِحبرٍ مخالف لحبر النّص الأصليّ، ونلاحظ أيضا أنّ الكتابات القبطيّة موضوعها مختلف عن موضوع النّص الأصليّ، يضاف إلى كل هذا أنّه لم يعثر على أيّ وثيقة رسميّة كتبت بالقبطيّة في العهد العربي[3].

فديوان خراج مصر إذن كان باليونانيّة والعربيّة، فاليونانية كانت هي اللّغة الرّسميّة حتّى عهد الوليد بن عبد الملك ثمّ أصبحت العربيّة، ويدلّ على ذلك أوراق البردي التّي عثر عليها مكتوبة بالعربيّة، وهذه الوثائق تدلّ على أنّ اللّغتين اليونانيّة والعربية كانتا مستعملتين في دواوين الحكومة، الأولى رسميّة تدوّن بها الدّواوين، والثّانية لغة الحاكم العربي[4].

وما ينبغي أن ننبّه إليه –عند الحديث عن اللّغات المستعملة في الدّواوين– أنّ الدّواوين الأولى كديوان الجند والمال كانت لغتها العربيّة منذ نَشأتها في عهد عمر بن الخطّاب، أمّا التي وجدت في البلاد المفتوحة فقد أبقاها العرب على حَالها، وهي المختصة بالجِباية وحساباتها، فظلّت في العراق بالفارسيّة وفي الشّام بالرّوميّة[5].

فالواضح أنّ أغلب دواوين الدّولة الأموية فيما عدا ديوان الخراج كانت باللّغة العربيّة، وأغلب

---

[1]–هاني العمد: المرجع السابق، ص10، 11.

[2]–حسن إبراهيم حسن، علي إبراهيم حسن: النظم الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1970، ص191.

[3]–حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل، بيروت، 2001، ج1، ص367، 368.

[4]–المرجع نفسه، ص367.

[5]–توفيق سلطان اليوزبكي: التعريب في العصرين الأموي والعباسي، المجلة التاريخية المصرية، مطبعة الجيلاوي، القاهرة، م24. 1977، ص14. فالح القيسي: استعمال العربية في الدّواوين الماليّة، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، ع21، 22، آذار، حزيران ،1986، ص120.

الكتّاب لم يُوَضّحوا هذا الأمر، والملاحظ في كتاباتهم يرى أنّ كلّ الدّواوين كانت بالأجنبية، غير أنّ الباحث المُستقصي المحقّق يرى أنّ ديوان الإنشاء والجند والشّرطة والقاضي هي منشآت إسلامية، ذات صلة بالتّفكير العربّي والإسلامي، ويبرز ذلك خصوصا في ديوان الرّسائل والجند، ويظهر ذلك أيضا من خلال تطبيق الأحكام الشّرعيّة في ديوان القاضي والشّرطة، أمّا ديوان الخراج فهو قديم النَّشأة، وهو الذي أبقاه عمر على لغته وموظّفيه، بسبب عدم إجادة العرب للحساب[1].

-الأسباب الدّافعة لظهور حركة التّعريب:

لم تَستمرْ الاستعانة باللّغات الأخرى في الدّولة الإسلاميّة طويلا، والسبّب في ذلك يعود إلى ما فرضه التّقدّم، «فأوضاع الدّولة الإسلاميّة العربيّة تجري عليها سُنّة التّطور أيضا، هذا التّطوّر الذي كان لا بد أن يأخذ مَجراه ليتوّقف استخدام اللّغات الأجنبيّة، وممثّلي الثّقافة الأجنبيّة أيضا»[2]، ونتيجةً لاستقرار الأمور في يد عبد الملك والانتصارات العسكريّة للجيوش الإسلاميّة، كان لا بدّ من تطوير النّظام الإداري، وتحقيق استقلاليّته، والتّخلّص من التّبعيّة، وفي ضوء هذا قام عبد الملك بثورته الثّقافية، وذلك بتعريب الدّواوين، واتّخاذ اللغة أداة للإدارة ليشرف الخليفة بنفسه على أمور الدّولة، أمّا ما ذكره المؤرّخون من أن سبب تعريب الدّواوين هو بَوْل أحد كُتّاب الرّوم في دواة، «فهذا تعليل سَاذج لعمل عظيم اقتضتْه السيّاسة العامّة للدّولة»[3]. فقد جاء عند البلاذري في سبب تعريب الدّيوان: «ذلك أنّ رجلا من كتّاب الرّوم احتاج أن يكتب شيئا فلم يجد ماءً فبال في الدّواة، فبلغ ذلك عبد الملك فأدَّبه، وأمر سليمان بن سعد الخُشني بنقل الدّيوان، فسأله أن يعيِّنه بخراج الأردن، ففعل وولاّه الأردن، فلم تنقضِ السّنة حتّى فرغ من نقله»[4].

ولا أظنّ أنّ هذا السبّب مقنع في عمليّة التّعريب، بل كانت لعبد الملك طموحات الأمة في ذلك وفي نشر العربيّة، يقول علي أُومليل: «إنّ عمليّة التّعريب كانت سياسيّة لأنّ العرب حملة الإسلام وهم يُؤسّسون دولتهم، ويقيمون إمبراطوريّة على حساب ممالك فارس وبيزنطة، كان لا بد أن يعرّبوا دولتهم لاعتبار قوميّ وديني معًا»[5].

---

[1]-أحمد شلبي: السياسة في الفكر الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1992، ص216.

[2]-فالح القيسي: المرجع السابق ، ص121.

[3]-شحاذة الناطور: تجديد الدولة الأمويّة في عهد الخليفة عبد الملك، بن مروان، 69-68هـ، دار الكندي، الأردن، 1996، ص351، 352.

[4]-البلاذري أحمد بن يحيى بن جابر(ت279هـ): فتوح البلدان، تح: عبد الله أنيس الطباع، عمر أنيس الطباغ، دار النشر للجامعيين، 1987، ص271، 272.

[5]-السلطة الثقافية والسلطة السياسية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998، ص56.

وممّا يُعضّد رأينا ما رواه ابن عساكر من أنّ عبد الملك حدث سليمان بن سعد الخُشني[1] يوما، وقال له: إنّ ما يلي النّصارى من أمور المسلمين لم يزل يغِيظُني منذ كنت غلامًا أفِدُ على معاوية، ولقد أردت أن أذكر ذلك في عهد مروان، فمُنعت بسبب من الأسباب، ولما مرض سَرجون ولّى عبد الملك سليمان بن سعد الدّواوين، وكان أوّل مسلم ولي الدّواوين كلّها، وحوّلها إلى العربيّة[2]، فعبد الملك كان يُخططّ لعملية التّعريب منذ فترة طويلة، فسعى إلى ذلك حتّى يتخلّص من التّبعيّة للفرس والرّوم.

هذا وكان الفرس يَتباهون على العرب بتنظيماتهم، فقد قال أحدهم لرجل من العرب: «ما احتجْنا إليكم قطُّ في عمل ولا تسمية، ولقد مَلكتُم فما استغنيتم عنّا في أعمالكم ولا لغتكم، حتّى إنّ طَبيخكم وأَشربَتَكم ودواوينَكم وما فيها على ما سمّينا ما غيّرتُموه»[3]. فلذلك أراد عبد الملك استكمال التّحرّر العربي من التّأثير الأجنبيّ، فأقْدم على تعريب الدّواوين والنّقود، ومن الرّاجح أن يكون عبد الملك أراد أن يُشرف بنفسه أيضا على مَصروفات الدّولة وواردتها، بصورة مباشرة، وهذا لا يتمّ إلاّ بتعريب السّجلات، بالإضافة إلى أنّ عبد الملك أراد أن تكون العربيّة لغة الدّين والعلم والسيّاسة[4]،و«لا يكفي في النّظام الإسلاميّ أن يُعيّنَ الخليفة في الإدارة وغيرها ذوي الكفاءة الأمناء، إذ لا يكون بذلك دفع المسؤوليّة عن نفسه، بل لا بدّ له شرعا أن يراقب أعمالهم بصورة مستمرّة، فهم ليسوا معصومين عن الخيانة والغشّ ولا معصومين عن الخطإ، وإذا أمكن استبعادُ غشّهم أو خيانتهم –نظرا لما يُشترط فيهم من شروط شرعيّة في بدء توليتهم — فلا يمكننا أن نستبعدَ خطأهم، وما دامت المراقبة الدّائمة والمحاسبة المستمرّة تَتأتّى بهم عن الخيانة، وتقلّل الخطأ، فإنّها تكون واجبةً شرعًا»[5].

ونلاحظ عند الحديث عن تعريب الدّواوين في مصرَ أنّنا لا نلمس فيه مثل الأسباب التي يجري لأجلها تعريب ديوان الشّام، بل إنّ القرار جاء كأمرٍ رسّميٍّ فحسب، حيث أمر واليها عبد الله بن عبد الملك بالدّواوين فنُسخت إلى العربيّة، وكانت قبل ذلك بالقِبطيّة واليونانيّة[6].

ونجمل أسباب تعريب عبد الملك للدّواوين فيما يلي:

---

[1] سليمان بن سعد الخُشَني: من أهل الأردن كتب لعبد الملك وكان ملازما له وكتب للوليد وسليمان وعمر. الجهشياري أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت331هـ): الوزراء والكتاب، تح: عبد الله إسماعيل الصاوي، مطبعة المشهد الحسيني، القاهرة ، 1938،ص24. ابن عساكر أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت571هـ): تاريخ مدينة دمشق، تح: محب الدين أبو سعيد عمر بن غرامة الغمروي، دار الفكر، بيروت، 2001،ج22،ص317.

[2]–ابن عساكر: المصدر السابق، ج22، ص320، 321.

[3]–حسان حلاّق: المرجع السابق، ص110،109.

[4]–جاسم صبكان علي: تاريخ صدر الإسلام والخلافة الأموية، دار الفكر، عمان، 2002، ص144.

[5]–منير حميد البياتي: النظم الإسلامية، دار وائل، عمان، ط1، 2006، ص319،320.

[6]–فالح القيسي: المرجع السابق، ص124.

1-إتمامُ صَبْغ الدّولة بالصِّبغة العربيّة، خاصة بعد أن تحقّقت حركة الإصلاح النّقدي، فالتّعريب من مظاهر وجود الدّولة وسيادتها.

2-كان الاختلاف في لغات الدّواوين يفتّت نظام الدولة الاقتصادي، ويعيق إدارتها الماليّة، لذا كانت حركة التّعريب دعما للمركزيّة في الإدارة والاقتصاد.

3-تحرير النّظم الإداريّة الماليّة من السيّطرة الأجنبيّة.

4-تقييم اللّغة العربيّة ورفع مركزها[1].

أمّا عن سبب تعريب النّقود، فنذكر أنّ الدّراهم التي كانت متداولة كانت من ضرب فارس والرّوم، فرأى الخليفة صرفها إلى الإسلام، وكره الضّرب الجاري عندهم من الرّوم فردّها إلى الإسلام[2]، وكانت أولى مُحاولات تعريب النّقود في العهود الإسلاميّة زمن عمر بن الخطّاب –كما سنذكر– حيث ضرب الدّراهم على نقش الكِسرَويّة، ونقش بعضها الحمد الله، وبعضها محمّد رسول الله، أولا إله إلاّ الله[3].

«وقد يبدو من غير الممكن بحث الثّورة النّقديّة في معزلٍ عن دور الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الذي واجه النّقد في المجتمع العربي وبخاصّة الدينار الواقع تحت هيمنة دولة أجنبيّة، ممّا دفعه إلى القيام بالتحوّلات غير العاديّة،فاخترق الثّوابتَ الآنفة تحت ضغط من المتغيّرات الجديد المتمثلة في الاستقرار السيّاسي وازدهار النّشاط الاقتصادي، هذا إلى جانب الشّعور بالأنفة العربيّة بعد تراجع أهميّة ومكانة الدّولة البيزنيطيّة، لقد كان التغيّر يفرض على الخليفة المسؤولية باستيعاب مرحلة الثورة القادمة ومتطلّباتها، وقد برز ذلك في الأدوار التي مرّ بها كل من الدّينار والدّرهم»[4].

فسبب تعريب النّقود ما نُقش من كتابات مسيحيّة على الطِّراز والقراطيس المصنوعة في مصر، والتي ترد من بلاد الرّوم، والذي ساعد على استمرار صناعتها وتصديرها أنّ أكثر سكّان مصر كانوا لا يزالون على دين المسيحيّة، فأثّرتْ النّعرة الدّينيّة على عبد الملك فاستنكر التّثليث التي كانت عباراته تكتب على الطِّراز، فكان ذلك سببا في تعريب الطّراز وحتّى النقّود، ليستكمل استقلاليّته عن الرّوم[5].

فتعريب النّقود يعود إلى الصّراع بين عَقيدتَيْ التّوحيد والتّثليث، وذلك ما أذكى النّزاع بين عبد الملك وملك الرّوم، وكان سببا مباشرا للإصلاح النّقدي[6]، ويضيف حسان حلاّق: «كان الخليفة الأموي يرى

---

[1]–حسان حلاّق:المرجع السابق، ص124،123.

[2]–الخزاعي علي بن محمّد بن مسعود (ت 789هـ): تخريج الدلالات السّمعية على ما كان في عهد رسول الله من الحرف والصّنائع والعمالات الشرعية، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ص200.

[3]–توفيق سلطان اليوزبكي: المرجع السابق، ص11.

[4]–شحاذة النّاطور: المرجع السابق، ص256.

[5]–حسان حلاّق: المرجع السابق ، ص33، 34.

[6]–عبد الجبار حمد السبهاني: النقود في الإسلام، مجلة الحكمة، المدينة المنورة، ع12، ص223.

أنّ ضرب العملات العربيّة الإسلاميّة ضرورة لازمة اقتضتْها الظّروف لتدعيم البناء الاقتصادي والسيّاسي القومي للدّولة العربيّة، خاصّة بعد أن انتقلت الدّولة من مرحلة الفوضى والاضطراب إلى مرحلة البناء والاستقرار، ولتحقيق الاستقلال الاقتصادي للدّولة العربيّة أنشأ عبد الملك دارًا لضرب السّكة»[1].

فرغبة عبد الملك في ضرب عملة مستقّلة لإنهاء الاحتكار البيزنطي كان دافعا لتعريب النّقود، إضافة إلى رغبته في استكمال عملية تعريب الإدارة التي بدأها بتعريب دواوين الدّولة[2]، بالإضافة إلى أنّ العملة الفارسيّة كانت مَغشُوشة لفساد الوضع بالدّولة الفارسيّة، هذا ولا نغفل التّجارة ودورها، فقد تقدمت في عهد عبد الملك فاحتاج إلى نظامٍ ثابت للنّقد[3].

ويمكننا أن نجمل أسباب تعريب النّقود فيما يلي:

1-أراد عبد الملك صَبغ الدّولة بصبغة عربيّة وهي سياسة رسَمها بدّقة، ونفّذها في الميادين الإداريّة والاقتصاديّة، وبالتّالي استقلالية الدولة العربيّة.

2-رغبة عبد الملك في إعادة حقّ ضرب النّقود إلى الخلافة، كمظهر من مظاهر السّلطان والمركزيّة من جهة، وتحقيقا للاستقرار من جهة أخرى.

3-ضرب النقود باسم الخليفة يعبّر عن سيادة الدولة وتحرّرها من أي نفوذ أجنبيّ.

4-تعريب النّقود من قبل عبد الملك كان خطّة منه للتخلّص من الجِزية المفروضة من ملك الرّوم.

5-نقص النّقود الفارسيّة المتداولة عند العرب بسبب ضعف الدّولة الفارسيّة.

6-شُيوع الزّيُوف في العملات –ولا سيَما الفارسيّة- أدّى إلى هُبوط قيمة العملة، وارتفاع الأسعار، وسوء الحالة الاقتصاديّة، وهذا ما أدّى إلى إصلاح نقدّي لتفادي الأضرار.

7-الاختلاف في الأنظمة الماليّة السائّدة في الدولة العربية من نظم ماليّة سَاسانيّة وبيزنطية، كان سببا واضحا في الاختلاف بين أحكام الجِزية والخراج والعُشور، لذا قرّر عبد الملك توحيد النُّظم في ظل عملة إسلاميّة[4].

ونضيف إلى كلّ ذلك الأسباب القَوميّة، فالواجب العربي والأنفة العربيّة اقتضتا من الخليفة أن يستقلّ بنقد عربيّ[5].

---

[1]-المرجع السابق، ص32.

[2]-جاسم صبكان: المرجع السابق، ص147.

[3]-توفيق سلطان اليوزبكي: المرجع السابق، ص13.

[4]-حسان حلاق: المرجع السابق، ص 42-45.

[5]-شحاذة الناطور: المرجع السابق، ص266.

تعريب الدّواوين في العهد الأموي:

-تعريب ديوان الشّام:

يقول البلاذري: «ولم يزل ديوان الشّام بالرّومية حتى ولي عبد الملك بن مروان، فلمّا كانت سنة 81هـ أمر بنقله»[1]، فأوّل من نقل ديوان الشّام من الرّومية إلى العربيّة عبد الملك بن مروان، نقله له سليمان بن سعد مولى الخُشين كاتب رسائله وخراجه، فولاّه عبد الملك جميع الدّواوين[2]، وأجبرت عمليّة التعريب هذه كلّ من يرغب بالعمل في دواوين الدّولة أن يُتقن اللّغة العربيّة، وتجدر الإشارة إلى أنّه استمر استعمال النّصارى الذين يتقنون العربيّة، وقلّما خلا منهم ديوان من دواوين الدّولة[3].

وكنّا ذكرنا أنّ بعض المصادر ترجع سبب تعريب عبد الملك لديوان الشّام إلى بَول أحد كتّاب الرّوم في دواة[4]، وذكرنا أنّ هذا لا يُعدّ سببا مقنعا بل من السّخافة بمكان أن نرجع هذا العمل العظيم إلى سبب تافه كهذا، ويذكر ابن عبد ربّه سببا آخر دفع بعبد الملك إلى تعريب ديوان الشّام، فقد رأى عبد الملك بعض التّفريط من سَرجون بن منصور الرّومي[5] كاتب الدّيوان، فقال لسليمان بن سَعد كاتبه على الرّسائل: «إنّ سَرجون يُدِلُّ علينا بصِناعته، وأظنّ أنّه رأى ضرورتنا إليه في حسابه، فما عندك فيه حِيلة؟ فقال: بلى، لو شئتَ لحوّلتُ الحساب من الرّوميّة إلى العربيّة، قال: افعل، قال: انظرْني أعان ذلك، قال: لك نَظِرة ما شئتَ، فحوّلَ الدّيوان، فولاّه عبد الملك جميع ذلك»[6].

---

[1]-المصدر السابق، ص271.

[2]-ابن عبد ربه الأندلسي أبو عمر أحمد بن محمد (ت337هـ): العقد الفريد، تح: أحمد أمين وآخرون، دار الكتاب العربي، بيروت، 1987، ج4، ص399. المقريزي تقي الدين أحمد بن علي (ت 845هـ):المواعظ الاعتبار بذكر الخطط والآثار، مؤسسة الحلبي وشركاؤه، القاهرة ، ج1، ص98. القلقشندي: المصدر السابق، ج1، ص482.

[3]-نجدة خماش: الإدارة في العصر الأموي، دار الفكر، دمشق، 1980، ص156.

- [4]-انظر في ذلك:البلاذري: المصدر السابق، ص 271، 272. الماوردي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (ت450هـ):الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تح: خالد عبد اللطيف السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1999، ص351. النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت733هـ): نهاية الإرب في فنون الأدب، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، 1991، ج8، ص198، 199.

[5] - سَرجُون بن مَنصور الرُّومي: كتب لمعاوية وابنه يزيد ومعاوية الثاني وعبد الملك. ويذكر ابن عساكر انه كان نصرانيًّا فأسلم، والأصح أنه لم يسلم، ويقال له سَرْجة، وبنيت له كنيسة بدمشق بعد الفتح، وصار كاتبا لمعاوية فيما بعد. خليفة بن خياط أبو عمر العصفري (ت240هـ): تاريخ خليفة بن خياط، تح: مصطفى نجيب فواز، حكمت كشلي فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995، ص 189. الجهشياري: المصدر السابق، ص 19، 20، ابن عساكر: المصدر السابق، ج20، ص 161. ج4 ص 161.

[6]-المصدر السابق: ج4، ص169، 170. الجهشياري: المصدر السابق، ص24.

وهذا السّبب يبدو مقنعا نوعًا ما، بالإضافة إلى ما ذكرنا من أنّ مُتطلّبات الدّولة والحياة الجديدة كانت أيضا دافعا للتعريب، يقول ابن خلدون: «ولـمّا جاء عبد الملك بن مروان واستحال الأمر ملكا، وانتقل القوم من غَضاضَة البداوة إلى رَوْنق الحضارة، ومن سَذاجة الأميّة إلى حِذق الكتابة، وظهر في العرب ومَوَاليهم مَهَرَة في الكتّاب والحسبان، فأمر عبد الملك سليمان بن سعد بنقل ديوان الشّام إلى العربيّة، فأكلمه لسنة من يوم ابتدائه»[1].

-تعريب ديوان الفارسيّة -العراق وخراسان-:

الذي يلفت الانتباه هو الاختلاف في تاريخ التّعريب بالشّام والعراق، ومن خلال النّصوص يتّضح أنّ التّعريب كان بالعراق قبل الشّام، والظاهر أنّ السّبب في ذلك يعود لعدم معاصرة المؤرخين لتلك الحقبة التاريخية فاختلفوا[2]، والذي يهمُّنا هو أنّ ديوان العراق كان مكتوبا بالفارسيّة، ونقل إلى العربيّة في عهد عبد الملك على يد كاتب الحجّاج صالح [3] بن عبد الرّحمن[4]، وهناك رواية عند ابن عبد ربّه يذكر فيها أنّ قُحْذُم[5] جدّ الوليد بن هشام القُحذمي هو من قلب الدّواوين من الفارسيّة إلى العربيّة[6]،« والأكثرون على أنّ الذي نقل ديوان العراق إلى العربيّة صالح بن عبد الرحمن كاتب الحجّاج، وكان مولى لبني سعد،

---

[1]-العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، ج1، ص203.

[2]-حسان حلاّق: المرجع السابق، ص108.

[3] - صالح بن عبد الرحمن: كان أبوه من سَبي سجستان، وسُبيَ معه صالح سنة 30، في خلافة عثمان على يد الرّبيع بن زِياد الحارِثي، ولما أُعتق صالح تعلم العربية والفارسية، وكان فصيحا جميلا حافظا ، وكان صالح مع زادان فَرُّوخ كاتب الحجاج، فلما مات زادان في أيام ابن الأشعث استكتبه الحجاج، وهو الذي عرّب ديوان خراج العراق من الفارسية، وقتل في خلافة يزيد بن عبد الملك على يد عَمرُو بن هَبِيرة. البلاذري: أنساب الأشراف، تح: سهيل زكار، رياض زركلي، دار الفكر، بيروت ، 1996، ج8،ص288. الجهشياري :المصدر السابق، ص23، ابن عساكر: المصدر السابق، ج23،ص123، ابن منظور جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري (ت711هـ): مختصر تاريخ دمشق، تح: سكينة الشّهابي، دار الفكر، دمشق، 1988، ج11،ص32.

[4]-ابن عبد ربّه: المصدر السابق، ج4، ص399. الصولي أبو بكر محمد بن يحيى(ت335هـ): أدب الكاتب، تح: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994، ص200. ابن طباطبا محمد بن علي (ت 907هـ): الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تح: عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، حلب سوريا، 1997، ص123. السيوطي جلال الدين (ت 911هـ): تاريخ الخلفاء، تح: أبو عبد الله محمد بن الجميل، دار البصيرة، الإسكندرية، 2004، ص221.

[5]-لم أعثر على ترجمته.

[6]-المصدر السابق، ج4، ص170.

وهو يومئذ صاحب دواوين العراق، وذلك سنة ثمانين»[1].

فالأصحّ إذن أنّ تعريب ديوان العراق كان في عهد عبد الملك على يد صالح بن عبد الرّحمن، وسبب ذلك أنّ هذا الأخير كان يكتب بين يدي زادان فَرُّوخ كاتب الحجّاج، فأحسّ أنّ الحجاج بدأ يفضّله على زادان، فأخبر زادان بذلك، فأجابه بقوله: لا تظنّ ذلك فهو أحوج إليّ منه إليك ، لأنّه لا يجد من يَكفيه حسابه غيري، فقال صالح: لو شئت حوّلتُ الحساب إلى العربيّة، قال زادان: فحوِّلْ منه شطرًا حتّى أرى، ففعل، فقال له تمارَض فتمارض، ولما توفّي زادان في حرب ابن الأشعث استكتبَ الحجّاج صالحا، فأخبره بما جرى من نقل الدّيوان، فعزم عندها الحجّاج أن يعرّب الدّيوان وقَلَّد ذلك صالحا، فعرّبه، ولذلك كان عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان يقول: «لله دَرُّ صالح ما أعظم مِنّتهُ على الكتّاب»[2].

ويروي البلاذري أنّ مَردان شاهْ بن زادان فَرّوخ قال لصالح: كيف تصنع بِدَهْوَيْه وشَشْوَيْه، قال أكتب عشرا ونصف عشر، قال: كيف تصنع بوَيْد، قال: أكتبه كذلك، والوَيْد النيِّف والزّيادة تزداد، عندئذ قال له مَرْدان شاه قطع الله أصلك من الدّنيا كما قطعتَ أصل الفارسيّة[3]، وهكذا تمّ تعريب ديوان العراق، وكان نتيجة ذلك أن اضطُرّ الفرس وهم كثرة في العراق إلى تعلّم اللّغة العربيّة، وكانوا مضطرّين إلى نوع من العلم لتسهيل ذلك، فدعت الحاجة إلى علم النّحو، فكان طبيعيّا أن يظهر بالعراق[4].

أمّا عن ديوان خراسان فقد كان آخر الدّواوين تعريبا، ونحن إنّما قدّمنا الحديث عنه هنا قبل الحديث عن ديوان مصر، لأنّ لغته كانت الفارسية، فرأينا من المناسب أن نتحدث عنه مع ديوان العراق فلغتهما واحدة.

إذن كان ديوان خراسان بالفارسيّة وكتّابه من المجوس، وبقي على ذلك حتى كتب يوسف بن عَمرو[5] والي العراق لهشام سنة 124 إلى عامله على خراسان يأمره أن لا يستعين بأحد من أهل الشّرك

---

[1]–المقريزي: المصدر السابق، ج1، ص98.

[2]–البلاذري: فتوح البلدان، ص421. الجهشياري: المصدر السابق، ص23. الماوردي: المصدر السابق، ص341. النويري: المصدر سابق، ج8، ص199. المقريزي: المصدر السابق ، ج1، ص98.

[3]–فتوح البلدان، ص421. الراغب الأصبهاني أبو القاسم حسين بن محمد: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ، ج1، ص96.

[4]–نجدة خمّاش: المرجع السابق، ص156.

[5] –هو يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم الثقفي أمير العراقين وخراسان لهشام ثم أقره الوليد بن يزيد وكان شهما كافيا سائسا مهيبا جبارا ولي اليمن سنة 106 هـ ثم العراق ،قتل سنة 127 هـ وعاش أزيد من 60 سنة ، الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ): سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1981،ج5، ص442،444.

في أعماله وكتابته، وأن ينقل الدّيوان إلى العربيّة، وكان أوّل من نقله إسحاق بن طُلَيق[1] من بني نَهشَل[2]، إلاّ أنّ اللّغة الفارسيّة استمرّت حتّى العهد العبّاسي، وكان استمرار الفارسيّة وتأخر حركة التّعريب أمرا طبيعيّا، فالفارسيّة لغة السّكان الأصليّة ولغة الدّين المجوسي، ولا يعقل أن تذوب في فترة قصيرة، بل يحتاج ذلك إلى مدّة طويلة[3].

-تعريب ديوان مصر:

يذكر القلقشندي أنّ أوّل من نقل ديوان مصر من القِبطيّة إلى العربيّة عبد العزيز بن مروان في إمارته على مصر[4]، بينما يقول المقريزي أنّ الذي نقله هو عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر على عهد الوليد بن عبد الملك سنة 87هـ، وصرفَ أَشْناس عن الديوان وجعل عليه ابن يَرْبوع الفَزَازي من أهل حمص[5].

يقول حسن إبراهيم حسن: «وحذا الوليد حذْوَ أبيه عبد الملك فحوّل ديوان الخراج في مصر إلى العربيّة، بعد أن كان باليونانيّة التي كانت اللّغة الرّسمية في هذه البلاد إلى عهد الوليد بن عبد الملك (86-96هـ) يؤيّد ذلك أوراق البردي العربيّة ذات الصِّبغة الرّسميّة، يرجع تاريخها إلى عهد الوليد، والتي دوّنت باليونانيّة والعربيّة معا»[6]، ونشير إلى أنّ اللّغة العربية بعد التعريب لم تكن اللغة الوحيدة في مصر، بل بقيت اليونانيّة أيضا، فقد استمر استعمال بعض الألفاظ اليونانيّة في زمن الوليد كجَسْطال بمعنى المسؤول، ومَوَازيت التي تعني مشايخ ورؤساء القرى[7].

وممّا يلاحظ في تعريب ديوان مصر عدم وجود معارضة من الأقباط وغيرهم مثل ما لاحظنا في ديوان الشّام والعراق، وكان من نتيجة التّعريب هنا أن اضطرّ الأقباط الذين كانت تستخدمهم الحكومة العربيّة إلى تعلّم تلك اللّغة للحفاظ على مناصبهم[8].

ومن خلال عرضنا لكلّ هذا يتضّح أنّ كتّاب الدّواوين كان لهم الفضل الكبير في تعريب الديوان والإدارة عمومًا، وهذا يشهد بحسن أثرهم، وعظيم مهمتهم، ودورهم في الحفاظ على اللّغة العربيّة وتطوير أساليبها.

---

[1]-لم أحصل على ترجمة.

[2]-الجهشياري:المصدر السابق، ص43. نجدة خّماش: المرجع السابق، ص158، 159. مصطفى الحياري: الدواوين من كتاب الخراج وصناعة الكتابة لقدامة بن جعفر، الجامعة الأردنية، عمان، 1986، ص3.

[3]-حسان حلاق: المرجع السابق، ص109.

[4]-المصدر السابق، ج1، ص482.

[5]-المصدر السابق ، ج1، ص97.

[6]-تاريخ الإسلام، ج1، ص366، 367.

[7]-حسّان حلاّق: المرجع السابق، ص116.

[8]-نجدة خمّاش: المرجع السابق، ص175.

-تعريب النّقود والطّراز:

-صك وشعارات النّقود:

قبل الحديث عن تعريب النّقود نشير إلى العلم الخاص بها والذي يعرف بعلم النَّمِيَّات (Numismatique)، وهو علم «يختصّ بدراسة أنواع النّقود التي ضربت في مختلف العصور من حيث المعادن التي صنعت منها، والنّقوش والتّواريخ والكتابات التي نقشت عليها، وهو يساعد على تحديد المعلومات حول الفترات الزّمنيّة التي سادت فيها أنواع معيّنة من العملة، كما يساعد من خلال التواريخ المنقوشة عليها أن يحدّد الفترة الزّمنية التي حكم فيها كل منهم»[1].

وكانت الدّنانير في الجاهليّة وأوّل الإسلام بالشّام وعند عرب الحجاز روميّة تضرب ببلاد الرّوم، وتحمل صورة الملك واسم الذي ضربت في أيّامه مكتوب بالروميّة، وكانت الدّراهم في العراق كِسرويّة (فارسيّة)، عليها صورة كسرى واسمه فيها مكتوب بالفارسيّة[2].

وعرفت النّقود عمليّة تعريب، مثلها في ذلك مثل الدّواوين، «ولقد أصاب الدّرهم والدّينار في العهد الإسلامي تغيّرا جَوْهريّا أكسبه دلالته الرّمزيّة، وهو مُؤشّرٌ على تحوّلٍ بُنيويّ مسَّ عُمق المضمون بعد أن تغلّب على التّعديل والتّحوير، ليستقرّ في النّهاية نقدا عربيّا إسلاميّا قلْبا وقالبا»[3].

ويذكر ابن الجوزي أنّ بداية تعريب النّقود كانت سنة 21هـ، ولكنها لم تكن نقدا رسميا إلى عهد عبد الملك، فقد ضرب عمر الدّراهم على نقش الكِسروية وجعل فيها اسم الله، فكتب في بعضها الحمد لله، وفي بعضها محمّد رسول الله، وفي بعضها لا إله إلا الله، وكتب اسمه في بعضها[4]، إلاّ أنّ أسماء المدن التي ضربت فيها العملة كانت تكتب باليونانيّة والعربيّة[5].

ويذكر المقريزي أنّ عمر نقش في بعضها الحمد لله، وفي بعضها محمّد رسول الله وعلى آخر لا إله إلا الله وحده[6].

---

[1]-ناهد حمدي: المرجع في علم الديبلوماتيك العربي واستراتيجيات النقد والتحليل، دار العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 2001، ص19.

[2]-الكتاني محمد عبد الحي الإدريسي: نظام الحكومة النبوية المسمّى بالتراتيب الإدارية، تح: عبد الله الخالدي، دار الأرقم، بيروت ، ج1، ص329.

[3]-شحادة النّاطور: المرجع السابق، ص253.

[4]-المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تح: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995، ج4، ص311. نجدة خمّاش: المرجع السابق، ص238. حسان حلاّق: المرجع السابق، ص21.

[5]-حسان حلاق: المرجع السابق، ص21.

[6]-إغاثة الأمّة بكشف الغمّة، تح: مصطفى محمد زيادة، جمال الدين محمد الشبّال، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2002، ص52.

كما نقش عثمان على النّقود: الله أكبر، وضربت نقود سنة 28هـ كتب عليها بسم الله بالخطّ الكوفي[1]، وكذلك كتب معاوية على النّقود شعارات إسلاميّة، وفي ذلك يقول الكتّاني بأنّه كان من المسلّم أنّ أوّل من أحدث ضرب السّكة الحجّاج في عهد عبد الملك، ولكن عُثر على مَسكوكات قديمة مكتوب على أحد وجهَيْها بالخط الكوفي: الله الصّمد لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، ولو كره المشركون، وعلى الوجه الآخر لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وفي دورتها ضرب هذا الدّرهم بالبَصرة سنة 40هـ، ونقل عن بعض المؤرخين أنّه ضرب على السّكة صورة معاوية وخالد بن الوليد[2].

وقد ضرب معاوية دنانير عليها تمثال متقلّد سيفه، ثمّ أزال اسم الإمبراطور السّاساني كمرحلة ثانية من التَّعريب ونقش عليها كالآتي:

مركز الوجه: وسط: صورة الخليفة وكتب اسمه بالحروف البَهْلويّة[3].

محيط: مَأثُورة إسلامية "بسم الله" باللغة العربيّة.

-مركز الظّهر: يعتقد أنّه مَذبح النّار وإلى جانبه حارس النّار المقدّسة[4].

غير أنّنا نشير إلى أنّ هذه المسكوكات لم تكن رسميّة في الدولة، إذ بقيت أكثر المعاملات بالنقود البيزنطيّة والفارسية[5].

وكلّ ما ذكرناه ينافي ما ذكره ابن قتيبة من أنّ أوّل من نقش بالعربيّة على الدّراهم عبد الملك بن مروان[6]، ونجمع بين هذه الآراء بالقول أنّ عبد الملك أوّل من ضرب الدّراهم العربية الخالصة وأرسل إلى الحجّاج يأمره بذلك، فكتب عليها الحجّاج الله أحد الله الصمّد، وسميّت مَكروهة لأنّ الفقهاء كرّهوها، لما عليها من القرآن، وقد يحملها الجُنُب والمحدِث، وقيل لأنّ الأعاجم كَرِهوا نقصانها[7].

وعن سبب تعريب عبد الملك للنّقود تذكر المصادر أنّ القراطيس والدّنانير كانت تدخل بلاد الإسلام من الرّوم عن طريق مصر، فأحدَث عبد الملك كتابة قل هو الله أحد وغيرها من أسماء الله على رأس الصُّحف والقراطيس، ولما فعل ذلك بعث إليه ملك الرّوم: إنّكم أحدَثتُم في قراطيسكم كتابا نكرهه،

---

[1]-إبراهيم القاسم رحاحلة: النقود ودور الضرب في الإسلام في القرنين الأوليين، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999، ص32،33.

[2]-المرجع السابق، ج1، ص333.

[3]-اللغة البهلويّة شكل من أشكال اللغة الفارسيّة، عرف في الفترة الممتدّة بين القرن الثّالث والقرن العاشر الميلادي. منير البعلبكي: موسوعة المورد، دار العلم للملايين، بيروت، 1991م ، ج7، ص188.

[4]-إبراهيم القاسم رحاحلة: المرجع السابق، ص33.

[5]-نجدة خمّاش: المرجع السابق، ص238، 239.

[6]-المعارف، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ص308.

[7]-الماوردي: المصدر السابق، ص274. القلقشندي: المصدر السابق، ج1، ص483.

فإمّا أن تتركوه أو يأتيكم في الدّنانير من ذكر نبيّكم ما تكرهونه، وهذا التّهديد من ملك الرّوم لعبد الملك لم يثن عبد الملك عن عزمه فكره أن يدع ما سنّه، وبعث إلى خالد بن يزيد بن معاوية يستشيره، فأشار عليه بتحريم دنانيرهم وأن يضرب للنّاس سِكَكا ففعل عبد الملك ذلك وجعل بسم الله الرحمن الرحيم بدل اسم المسيح والصّليب[1]، كما جعل على الطِّراز: وشهد الله أنّه لا إله إلاّ هو[2].

ورغم ما ذكرنا من أنّ عبد الملك قد عرّب النّقود بداية من سنة 74 أو 75هـ، يقول شحاذة النّاطور أنّ التّعريب بدأ سنة 77هـ، كما أكّدت ذلك التّقنيات الحديثة، حيث أثبتت أنّ عبد الملك ضرب هذه السّنة نوعين من الدّنانير: الأوّل على الطِّراز البيزنطي، والثاني على الطّراز الإسلامي، وصكّ أيضا فُلوسا برونزيّة في مصر ونحاسيّة في سوريا، وسمح أن يكتب عليها اسم الوالي حينا، وعامل الخراج التي ضُربت تحت إشرافه حينا آخر[3].

ونعرض الآن نقش عبد الملك على النّقود، فقد كان كالآتي:

-مركز الوجه: لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

-الطّوق: محمّد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحقّ ليُظهره على الدّين كله ولو كره المشركون

-مركز الظّهر: الله أحد الله الصّمد لم يلد ولم يُولد ولم يكن له كُفؤا أحد.

-الطّوق: بسم الله ضرب هذا الدّرهم سنة ثمان وسبعين، أو سبع وسبعين[4].

أمّا دراهم الحجّاج فقد نقش في وجهها قل هو الله أحد وفي الوجه الآخر لا إله إلاّ الله، وطُوِّق الدّرهم بطَوق، وكتب في الطّوق الواحد: ضُرب هذا الدّرهم بمدينة كذا، وفي الطّوق الآخر محمّد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحقّ ليُظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون[5].

ومن كلّ ما ذكرنا عن تعريب عبد الملك للنقود يمكن القول أنّ عهده عرف ثلاثة أنواع:

النّوع الأوّل: النّقود قبل التّعريب وكانت بين 65 و67هـ. حيث استمرّ تَداول النّقود على الطِّراز السّاساني.

النّوع الثّاني: النّقود في مرحلة التّعريب، ما بين 67 و77هـ، حيث زادت عبارات التّعريب على الطِّراز السّاساني، كالحجّاج الذي كتب اسمه: الحجّاج بن يوسف، وزاد النّصوص العربيّة وحملت: بسم الله،

---

[1]-البلاذري: فتوح البلدان، ص335. ابن عساكر: المصدر السابق، ج17، ص195. المقريزي: إغاثة الأمّة، ص53، 54. السيوطي: المصدر السابق، ص219، 220.

[2]-البيهقي إبراهيم بن محمّد: المحاسن والمساوئ، دار بيروت للطباعة، 1979، ص470.

[3]-المرجع السابق، ص258.

[4]-ناهض القيسي: موسوعة النقود العربية والإسلامية، دار أسامة، عمان، 2001، ص 30،31. إبراهيم رحاحلة: المرجع السابق، ص38،39.

[5]-المقريزي: إغاثة الأمة، ص55.

لا إله إلا الله وحده، محمد رسول الله.

وبعد توطيد عبد الملك السلطة والقضاء على الأعداء، بدأ يتحرّر من التَّبعيّة البيزنطيّة، واكتملت خطوات تعريب الدّنانير، فحَذف الصليب وصورة هِرَقل، وأبدلها بصورة يعتقد أنها صورة لعبد الملك وهو يحمل سيفا، وفي سنة 77هـ، حملت الدّنانير العربيّة نصوصا من القرآن على الوجه والظّهر، وبذلك تخلّصت من التّبعيّة الأجنبيّة، وأصبحت عربيّة خالصة[1].

وقد اقتدى الخلفاء الأمويّون بعبد الملك في الكتابة على النّقود حتّى سقوط دولتهم، والظّاهر أن هشام بن عبد الملك نقش عبارة: أمير المؤمنين على دينار الذّهبي، ومعه اسم مدينة الضّرب، ونقشت عبارة: معدن أمير المؤمنين بالحجاز في مركز الظّهر[2]، وعُثر على درهم يعود إلى عهد هشام سنة 107هـ وعليه في المركز محمّد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه ولو كَرِه المشركون[3].

وعثر أيضا على درهم نقش فيه:

-مركز الوجه: لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

-مركز الظّهر: محمّد رسول الله.

-محيط الظّهر: بسم الله ضرب هذا الفلس بوَاسِط[4] سنة عشرين ومائة[5].

وبتعريب عبد الملك للدّواوين والنّقود يكون قد وضع لَبِنَة قويّة في إدارة الدّولة، وصبغها بصِبغة عربيّةٍ خالصة، فما كان على الخلفاء إلاّ أن ينتهجوا نهجه، ويحذوا حَذْوه في التّعريب، «وهكذا تمخَّضت حركة تعريب النّقود والدّواوين عن استقلال الاقتصاد والإدارة العربيّة من التبعيّة الفارسيّة والبيزنطيّة، واصطبغت الدّولة الأمويّة بصبغةٍ قوميّة عربيّة في المجالين الاقتصادي والإداري، ومن ثمّ السيّاسي، وهي أهمّ الرّكائز التي تقوم عليها الدّولة»[6].

-تعريب الطِّراز:

يعدّ الطّراز من أُبَّهَة الملك والسّلطان ومذاهب الدّول، والمقصود بالطِّراز هو أن ترسم أسماء أو علامات تختص بالملوك والخلفاء في طراز الأثواب المعدّة للباسهم، من الحرير أو غيره، «وتكون الكتابة

---

[1]-ناهض القيسي: المرجع السابق، ص28، 29. حسان حلاّق: المرجع السابق، ص 50-53.

[2]-حسان حلاّق: المرجع نفسه، ص66.

[3]-أنور الرفاعي: الإسلامي في حضارته ونظمه، دار الفكر، دمشق، 1982، ص238.

[4]-سُمِّيت واسط لأنّها متوسطة بين البصرة والكوفة، وتبعد عن كل منهما بخمسين فرسخا، بناها الحجّاج وسمّاها واسطا.ياقوت الحموي أبو عبد الله بن عبد الله الرومي (ت626هـ):معجم البلدان، تح: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990، ج5، ص400.

[5]-إبراهيم رحاحلة: المرجع السابق، ص48.

[6]-حسان حلاق: المرجع السابق، ص7.

بخيط الذّهب أو ما يخالف لون الثّوب، وكان العجم يكتبون أسماء الملوك وصورا معيّنة، لذلك اغتاظ ملوك الإسلام، فكتبوا أسماءهم وكلمات تدلّ على الفأل ويتمّ ذلك في دور الطّراز»[1].

وأوّل من نقل الطّراز إلى العربيّة عبد الملك، وكان الطّراز على أثواب الخلفاء وسُتورهم وقراطيسهم في خلافة بني أميّة، كما كان عند الرّوم والكتابة عليه بالرّومية، واستمر الأمر حتّى عهد عبد الملك الذي حوّلها إلى العربيّة، وبدأ بالقراطيس والطُّرُز المصرية فكتب عليها: وشهد الله أنّه لا إله إلاّ هو[2]. وكانت قبل ذلك تحمل عبارة: بسم الأب والابن ورُوح القدس، فعندما ترجمت إلى العربيّة واطّلع عليها عبد الملك اغتاظ وعظم الأمر عنده، فكتب إلى أخيه عبد العزيز والي مصر بإبْطال ذلك واستبداله بصورة التّوحيد قل هو الله أحد، وجعل على لباس الجند شارَة الخلافة، وهي اسم الخليفة ولقبه أو نحو ذلك، وأُنشئت دور طُرُز خاصّة[3].

هذا ما يمكن قوله عن تعريب الطّراز، وهو أيضا خطوة مهمّة في تاريخ حركة التّعريب، ودليل على علو الدّولة واستقلالها، فاستبدال الشّعارات المسيحيّة ووضع البديل الإسلامي تمّ القيام بصناعة مستقلّة للطُّرُز، وتحت إشراف الخليفة في العاصمة والولاّة، ثمّ وضع القوانين المتشدّدة، بإنزال العقوبات، خطوات تجديديّة مهمّة في مِضمار صناعة الطرز لأولي الأمر، وهي تدل على ما وصلت إليهّ الدّولة من مكانه في النّاحية السيّاسيّة، وهي بالتالي تدل على مكانة الخليفة المجدّد[4].

-نتائج حركة التّعريب وموقف أهل الذّمة منه:

-نتائج حركة التّعريب:

يقول حسن إبراهيم حسن عن نتائج حركة التّعريب: «إنّ النّظام الإداريّ والسيّاسي للولايات الإسلاميّة في عهد الدّولة الأمويّة لم يكن من عمل معاوية، بل إنّ عبد الملك هو الذي وضع هذا النّظام، فقد صبغ الإدارة والماليّة بالصِّبغة العربيّة، وبتحويله الدّواوين إلى العربيّة تقلّص نفوذ أهل الذّمة والمسلمين من غير العرب، بعد أن انتقلت مناصب هؤلاء إلى أيدي المسلمين من العرب، وقام الحجّاج بن يوسف بتنفيذ سياسة عبد الملك»[5].

فقد عرّبت دواوين العراق والشّام في عهد عبد الملك، وعرّبت دواوين مصر في عهد الوليد «وأمست اللّغة الرّسمية في السيّاسة والإدارة هي العربيّة، بعد أن نُقلت إليها أدقّ المصطلحات الفارسيّة

---

[1]-ابن خلدون: المصدر السابق ، ج1، ص222. جرجي زيدان: تاريخ التمدّن الإسلامي، مكتبة الحياة، بيروت، ج1، ص140.

[2]-البيهقي: المصدر السابق، ص470.

[3]-نجدة خماش: المرجع السابق، ص286. شحاذة النّاطور: المرجع السابق، ص378، 379.

[4]-شحاذة النّاطور: المرجع السابق، ص380.

[5]-تاريخ الإسلام، ج1، ص365.

واليونانيّة في الحساب والفنون المعروفة في تلك العصور»[1]، وليس فقط تعريب الدّواوين والنّقود ساهم في نقل المصطلحات الأجنبيّة بل حتّى عمليّة تعريب العلوم الذي كانت بدايتها في العهد الأموي لعبت دورا في ذلك أيضا، إلاّ أنّ تعريب العلوم كان على الأغلب جهودا فرديّة، وعلى نطاق ضيّق، واقتصرت على العلوم العقليّة كالمنطق والفلسفة الهنديّة، فعرّبت الألفاظ الهنديّة وانتشرت التّرجمات، ولعلّ أشهرها في هذه الفترة كانت في عهد عمر بن عبد العزيز، إذ نقل كتب الطب إلى العربيّة[2]، وترجمات خالد بن يزيد بن معاوية من اليونانيّة والقبطيّة، والتّي أدّت بدورها إلى تحسين اللّغة العربيّة وتوسيع مصطلحاتها[3].

فقد كان لحركة التّعريب إذن أثرٌ فعّال في الدّولة من النّاحية الإدارية واللّغويّة، إذ لولاها لتفكّكت إحدى أقوى أسس الحضارة، ألا وهي اللّغة العربيّة، فبفضل حركة تعريب الدّواوين «تبوّأت اللّغة العربيّة، المركز الأوّل بين سائر اللّغات السّائدة، بينما كانت تُعاني من إهمال في مجالي الإدارة والاقتصاد من قبل»[4]، وبذلك بدأت اللّغة العربيّة تخوض تجربة جديدة، وتدخل طورًا مهمّا من أطوارها[5].

هذا ونشير إلى أنّ العرب استعملوا في مصر بعد التّعريب ألفاظا يونانيّة، لأنّهم ما زالوا يعرفونها ويتعاملون بها، واستخدمت هذه الألفاظ لتسهيل التّنظيم الإداريّ في المناطق الريفيّة خاصّة، ولكن باستمرار الحكم العربّي في مصر زالت هذه التّعابير وحلّ محلّها اصطلاحات عربيّة[6]، وبِعمليّة التّعريب أنشأ الكتّاب لغة ذات طابع مزدوج، «لغة إدارية مع ما تقتضيه هذه اللغة من تعبير عن أوامر الحاكم ومقاصده، ولكنّها في الوقت نفسه لغة فنّية بالمعنى البلاغيّ العربّي للكلمة، فهي إذًا ليست لغة إداريّة جافّة، بل تُؤلّف بين مقتضيات التّعبير الإداري، وجماليّة القول الفنّي، ولذا فقد اخترع الكتّاب أمرين معًا، لغة الإدارة والنّثرِ الفنّي»[7].

كما نشير في نتائج حركة التّعريب التي قام بها الكتّاب أنّ هذه الحركة تبعها تقدّم علم الرياضيات بشكل ملحوظ، وسببه إجراء العمليّات التّجارية بالعربيّة مع حسابات ميزانيّة بيت المال، وحساب الفرائض وأمور وإرادات بيت المال ونفقاته[8].

---

[1]–صبحي الصّالح: المرجع السابق، ص315، 316.

[2]–توفيق سلطان: المرجع السابق، ص15، 16.

1. **[3]–D.M Dunlop: Arabic Civilization AD 1500, Longman Librairie du liban, P2, 1985, P39.**

[4]–حسان حلاّق: المرجع السابق، ص46.

[5]–هاني العمد: المرجع السابق، ص46.

[6]–حسان حلاق: المرجع السابق، ص116.

[7]–علي أومليل: المرجع السابق ، ص53.

[8]–شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، دار الفكر، دمشق،1994، ص327.

فكانت بذلك نتائج التّعريب عظيمة جدّا ،بل وأصبح تعريب الدّواوين سبيلا إلى تعريب الجاليات في أقاليم الدّولة المختلفة، فكان هذا من أهمّ العوامل في انتشار العربيّة، لغة الثقافة والإدارة، ولغة السيّاسة والدّين[1]، فمثلا تبِع تعريب الدّيوان بمصر تعريب مصر كلّها وذلك عندما غلبت الثّقافة العربيّة على البلاد، حتّى بين المسيحيين، «فما جاءت أواخر القرن الثّالث حتّى وجدوا أنفسهم لا يفهمون إلاّ العربية»[2]، ويقول ذنون طه في ذلك: «لقد كان هذا العمل يعني أكثر من مجرّد التّعريب لسجلاّتِ الضّرائبِ، إنّه نشرُ للثّقافة العربيّة التي طغت على الثّقافات الأخرى وطبعتها بطابعها الخاص، وهذا أدّى حتما إلى زوال نفوذ بعض الفئات التي كان نفوذها مستمدّا من التفوّق في الثّقافة والمدنيّة»[3].

ومن النتائج أيضا أنّ حركة التّعريب دفعت بالموالي الذين لا يفقهون العربيّة إلى تعلّمها، «فسيكون إذا على طائفة الموالي إتقان العربيّة كوسيلة لطلب المعاش وللاندماج والارتقاء داخل النّظام العربي الجديد، بل سيختصّون بعلم العربيّة لإثبات الذّات عن طريق التّبرير والتّفوق في لغة الآخر نفسها»[4].

-موقف أهل الذّمة من حركة التّعريب:

كنّا ذكرنا أنّ التّعريب حقّق نصرا للّغة العربيّة، حيث أصبحت لغة الثّقافة والإدارة إلى جانب أنّها لغة الدّين والسيّاسة، فأدّت بالعناصر غير العربيّة وبِلُغتهم إلى هامش الحياة بعد أن كانوا في الصّدارة، لهذا نجد حركة التّعريب أثارت استياء أعداء الدّولة[5]. فنتيجةً للتّعريب شَعَر الفرس والرّوم بانهيار نفوذهم، وكان الذي مَثَّلَ موقف الرّوم من هذه الحركة هو سَرجون بن منصور حين خرج كئيبا لما أخبره عبد الملك بالتّعريب، وقال لإخوانه من الرّوم: «أطلبوا المعيشة من غير هذه الصّناعة فقد قَطَعها الله عنكم»[6]، فغير العرب من كتّاب الدّواوين فَقَدوا مَكَاسبهم الماديّة[7].

كما حارب الفرس بدورهم فكرة تعريب الدّواوين حتّى آخر لحظة، وقاموا بمحاولتين لإعاقتها، ففي المحاولة الأولى سعى مَردان شاه ابن زادان فَرّوخ أن يقنع صالحا باسْتحالة ترجمة المصطلحات الفارسيّة، فسأله كيف تصنع بدَهْوَيه وشَشْويْه: فأجاب صالح أكتب عشرا ونصف عشر، فسأله أيضا كيف تصنع

---

[1]-عبد الواحد ذنون طه: دراسات في تاريخ وحضارة المشرق الإسلامي، دار المدار الإسلامي، بيروت،2005، ص93.

[2]-فالح القيسي: المرجع السابق، ص125.

[3]-المرجع السابق، ص94.

[4]-علي أومليل: المرجع السابق، ص57

[5]-شحاذة الناطور: المرجع السابق، ص354. ذنون طه: المرجع السابق، ص93.

[6]-البلاذري: فتوح البلدان، ص272. الماوردي: المصدر السابق، ص341. النويري: المصدر السابق، ج8، ص199. ابن خلدون: المصدر السابق ، ج1، ص203.

[7]-حسان حلاق: المرجع السابق، ص110.

بوَيْد، قال أكتبه أيضا، والويد النّيِّف والزّيادة[1]، وقد عبّرمَردان شاه عن يأس الفرس عندما قال لصالح بن عبد الرّحمن: «قطع الله أصلك من الدّنيا كما قطعت أصل الفارسيّة»[2].

وفي المحاولة الثّانية حاول الفرس اتّباع أسلوب الرّشوة، فبَذلوا لصالح مائة ألف درهم[3]، على أن يُظهر العَجز عن نقل الدّيوان، فأبى ومَضى في مهمّته ثابتا في وجه التّهديدات والإغراءات[4].

وبخلاف ديوان الفارسيّة والرّوميّة لا نجدُ أي معارضة أو محاولة إغراءٍ عند تعريب ديوان القبطيّة، ولعلّ ذلك يعود إلى كونِها ليست لغة رسميّة في الدّيوان –كما سبق وأن ذكرنا– فيكون وجودها كعدمه، ثمّ الذي يظهر ما دامت اللّغة العربيّة أساسيّة في هذا الدّيوان أنّ الكتّاب متقنين للعربيّة والقبطيّة، وبالتّالي لا خِشية على مناصبهم بتعريب الدّيوان.

ونشير في الأخير إلى ملاحظة مهمّة وهي أنّ الحكّام الأمويّين الذين قرّروا تعريب الإدارة الإسلامية، اعتمدوا في هذه العمليّة على كتّاب مَوال، أمثال صالح بن عبد الرحمن في العراق، أي أنّ عمليّة التّعريب هذه قد نفذّها تقنيّا موالٍ على حساب موالٍ آخرين لم يكونوا يحسنون العربيّة، وكانوا يدوّنون بالفارسية، والأمر نفسه نجده في تعريب دواوين الشّام[5].

كما أنّ التّنافس بين أنصار التّعريب وخصومه لم يكن بين عرب وعجم كما يتبادر إلى الذّهن، بل بين عجم فيما بينهم، بين المعرّبين وغير المعرّبين، فهؤلاء هم الذين مَسَّتهم بالدّرجة الأولى عمليّة تعريب الدّواوين، فأوّل مشرفٍ على عمليّة التّعريب صالح بن عبد الرحمن كان كاتبًا غير عربيّ، «فالتنّافسُ الذي شهِده التّعريب الأوّل لم يكن بين كتّاب عرب رجَحت كفّتهم بقرار التّعريب الذي اتّخذه الحاكم وبين كتّاب أجانب، بل كان بين هؤلاء الموالي أنفسهم، بين من أتقن منهم العربيّة ومن لم يُتقنها، ومن هنا نفهم حق الفهم قول عبد الحميد الكاتب –وهو مولى أيضا– :«لله دَرُّ صالح ما أعظم مِنّتهُ على الكتّاب»[6].

وفي الختام نشير استنادا إلى كلّ ما ذكرنا أنّ للكتاب مهمّة عُظمى ووظيفة أساسيّة في الدّولة وإدارة شؤونها، كما كان لهم الدّور البارز في الحفاظ على اللّغة العربيّة وتَرقية أساليبها، فأدّت حركة التعريب الشاملة التي قاموا بها إلى زوال نفوذ بعض الفئات التي كان كيانها مستمدّا من التفوق في الثقافة والمدنية.

---

[1]–البلاذري: فتوح البلدان، ص421. الجهشياري: المصدر السابق، ص23.

[2]–الماوردي: المصدر السابق ، ص341. النويري: المصدر السابق، ج8، ص199. المقريزي: الخطط، ج1، ص98.

[3]–عند ابن عساكر أنهم بذلوا له 300 ألف. تاريخ دمشق، ج23، ص344.

[4]–الماوردي: المصدر السابق ، ص341. النويري: المصدر السابق، ج8، ص199. ذنون طه: المرجع السابق، ص92.

[5]–علي أومليل: المرجع السابق: ص56.

[6]–المرجع نفسه: ص57.